

مقدّمة

لماذا يارتّب؟

كنت في زيارة إلى الجزائر مع بدء ثورة الياسمين في تونس. وبينما كانت الجماهير الغفيرة تملأ ميدان التحرير في ٣٠ يونيو/حزيران كنتُ في كوريا الجنوبيّة مسمّراً إلى شاشة التلفاز. ومع بدء الأزمة السوريّة كنت في الولايات المتّحدة... وسواء كنتُ بعيداً أم قريباً من مكان الأحداث الجارية، كانت أفكارِي ومشاعري تتعدّى الزمان والجغرافيا لتتماهى مع أولئك الذين يَنشدون الحرّيّة والكرامة، ومن يعانون شظفَ العيش، والذين يسلبُ أزيزُ الرصاص ودويُّ المدافع نومهم، فضلاً عن الذين غابت عنهم ابتسامة رضيع. وفي أوّل زيارة لي إلى سوريا، راعني هول الدمار والحراب، وصدّمني منظرُ صور الشهداء تملأ الساحات والشوارع في المدن والقرى.

في خضمّ هذه الأحداث المأساويّة التي تعصف بشرقنا العربيّ، بدأت تتوارد إلى ذهني أسئلة كثيرة لم أعرها فيما مضى أيّ

اهتمام، ولم تخطر على بالي . أسئلة باتت تُفَضُّ مضجعي وتحوزُ اهتمامي . كانت هذه الأسئلة ليست أسئلتني فحسب، بل أضحت أسئلة الناس وشغلهم الشاغل، يطرحها الشباب الجامعيُّ، والعامل الكادح، والمؤمنة التقيَّة، والملحد . وهي أسئلة من قبيل :
لماذا العنف؟ كيف يسمح الله باستمرار القتل والدمار؟

وضع أحدهم على صفحته على الفيسبوك هذه الكلمات :

يستطيع الله هداية كلِّ البشر ولكنَّه لا يريد!
يستطيع الله إطعام كلِّ الجوعى والفقراء ولكنَّه لا يريد!
يستطيع الله محو الشرِّ من هذا العالم ولكنَّه لا يريد!
يستطيع الله تحقيق العدالة والمساواة ولكنَّه لا يريد!
يستطيع الله إيقاف كلِّ هذه الدماء وإيقاف شلَّالات
الدم وإحلال السلام ولكنَّه لا يريد!
فهل من حاجة إلى الشيطان في وجود إلهٍ مثل هذا؟

تتناول هذه الكلمات مسألة قدرة الله ("يستطيع الله"...)
وصلاحه ورغبته ("ولكنَّه لا يريد"...)، وهي أمور صعبة ومعقَّدة
إلى حدِّ بعيد . فإذا كان في وسع الله إيقاف الشرِّ في هذا العالم،

لماذا يارب

فلماذا يستمرُّ الشرُّ؟ ولماذا يبدو للكثيرين أنَّ الشرَّ إلى انتشار
والخيرِ إلى اندثار؟ هل يسمح الله بالشرور؟ ولماذا؟

كما أنَّ هناك أسئلةً أخرى كثيرة مثل: ألم يعدِ الله بأن يحفظ
المؤمنات والمؤمنين به؟ فلماذا يُقتل بعضهم وينجو بعضهم الآخر؟
ما مصير الأقليات الدينية في الشرق الأوسط؟ متى سنشاهدُ
الحلقةَ الأخيرة من مسلسل الرعب والخوف؟ إلى متى يارب؟

كنت أمسك جهاز التحكم عن بُعد وأحاول أن أجد إجابات عن
بعض هذه الأسئلة بالتنقل من محطة تلفزيونية إلى أخرى، ولكن
باءت محاولتي بالفشل. لجأت إلى محاولة تقصي الإجابات من
خبراء وأصدقاء، ولكن لم تكن هذه المحاولة أفضل بكثير من الأولى.
فجأة وجدت نفسي منجذباً إلى كتاب قديم، وتساءلت: هل يستطيع
كتاب عفى عليه الزمن أن يساعدني في القرن الحادي والعشرين؟
هل جالت أسئلة مثل أسئلتي في فكر كاتب ذلك السفر؟ هل وجد
إجابات شافية؟ هنا بدأت رحلتي مع سفر حبقوق، فأضحى حبقوق
صديقاً حميماً لي، حتى إن ابنتي قالت لي أكثر من مرّة: هل
ستكلّمنا عن حبقوق ثانية؟ لا أريد أن أتكلّم عن حبقوق، بل
أرجو أن يكلّمنا الله جميعاً بواسطة معاناة حبقوق وتساؤلاته، علَّ

الرجاء يعود من جديد إلى القلوب المشتاقة إليه.

أودُّ أن أشكر كُليَّة اللاهوت الإنجيليَّة المصلحة (Reformed Theological Seminary) في أورلاندو، فلوريدا لإتاحة الفرصة لي لأمضي وقتًا مريحًا ومُنتجًا للتركيز على هذا الكتاب. وشكري للقسِّ الدكتور غسان خلف الذي تكرَّم بمراجعة النصِّ المبدئيِّ للكتاب، وتقديم الأفكار البناءة، والدكتورة نهلة لوقا لمشاركتها بقبصص واقعيَّة من عمق المعاناة السوريَّة. وأخصُّ بالشكر أوفير للطباعة والنشر لقبولها نشر هذا الكتاب. وأخيرًا وليس آخرًا، أنا شاكرٌ جدًّا لشريكة عمري الفنَّانة التشكيلية اذدهار إسحق لتجميل الكتاب بخمس لوحاتٍ تعبِّر عمَّا اختلج في قلب حبُّوق، وما يخلج في نفوسنا أيضًا. وقد أضيفت مقابل كلِّ لوحةٍ فقرةً بسيطة تشرح علاقتها بموضوع سفر حبُّوق. فلطالما كان الفنُّ بكافَّة أشكاله، من نحت ورسم وخطٍّ وزخرفة وموسيقا، مرافقًا لتراث الشعوب الدينيِّ للتعبير والتعلُّم، ومادَّة غنيَّة لتشديد دور العبادة. وفي الكتاب المقدَّس نرى خير دليل على اهتمام الله بأدقِّ التفاصيل الفنيَّة، وذلك في تعليمات الله لنبيِّه موسى لتشديد خيمة الاجتماع، ولنبيِّه داود وسليمان لبناء الهيكل. فأرجو أن تكونَ هذه اللوحات أداةً للتأمُّل العميق والتفكير الهادئ.

الفصل الأوّل

خبيّة الأمل بالله

البحث عن الحبق

زرعنا في حديقة منزلنا نبات الحبق بلونه الأخضر الفاتح والموشح المائل إلى الحمريّ. بينما أكتب هذه الكلمات أنظر إلى الحبق فأراه شاحب اللون وقد دنا أجله، أو هذا ما يبدو عليه. تحرص زوجتي على الحفاظ على البذور لتعيد زرعها. ومع اقتراب فصل الربيع تبدأ تلك البذور- التي ظننا أنّها ذهبت إلى غير رجعة نتيجة الرياح العاتية والمطر الغزير والتلج البارد- في البزوغ من تحت التراب الداكن مستعدّة لتملأ الجو عطراً من أريجها، ولتخضّر فتبهج عين الناظر إليها.

يُرَجَّح أنّ اسم النبيّ حَبَّقُوق مشتقٌّ من اللغة الأكاديّة ويعني الحبق. وربّما في هذا الأمر دلالة للرسالة التي يحملها لنا حَبَّقُوق. فهو يكتب بينما الحبق قد ييس وأضحّت الحياة تعاني قسوة الشتاء

والصقيع، وأضحت السماء مظلمة كأنَّ كلَّ رجاء قد بات هباءً منثورًا موليًا إلى غير رجعة. ولكن هل هذه هي القصة كلها؟ وهل هذه هي النهاية الحتمية؟ هل يتركنا الله في قسوة الشتاء؟ أليس من رجاء بعد الآن؟ لن يتركنا حَبَّقوق هنا، بل سيُجيبنا بطريقته الجذابة وبأسلوبه الشعريِّ الأخاذ عن هذه الأسئلة وما يمثّلها.

لقد دعي إرميا "بالنبيِّ الباكي"؛ لأنَّ الوضع المُساويَّ الذي عاناه وشعبه دفعه للعويل والبكاء، فنظّم قصائد الرثاء التي عُرفت "بمراثي إرميا"، أمّا نبينا حَبَّقوق فيمكن أن ندعوه بلقب "النبيِّ الوحيد"، وهو وحيد لأنّه لا يُذكر بتاتاً على صفحات الكتاب المقدّس خارج السفر القصير الذي يحمل اسمه^١. وهو وحيد، حاله حال الكثير من الناس لأنّه يتساءل ويغضب ويبكي ويتألّم ويقاسي، ويحاجج، ويحتجّ ويتمنّى... وكلُّ ذلك كأنّه متروك وحده. فليس ثمة عائلة تشعر معه، ولا جماعة إيمان تقف إلى جانبه، ولا أصدقاء معزّون يشاركونه آلامه ويخففون عنه وطأة أحزانه. إنّه وحيد! وفي خضمِّ وحدة قاتلة لم يجد فيها مَنْ يشكو إليه، نراه يجد الله! وكأنّه لا غنى

(١) يُذكر حَبَّقوق في أحد الأسفار القانونيّة الثانية "بل والتنين ٣٣-٣٩" حيث يؤمّن الطعام للنبيِّ دانيال وهو في جبِّ الأسود.

عن المطر ليصبر المرء قوس القزح! فماذا سيقول حُبُّوق لله؟

خضعتُ في الشتاء لعملية جراحية. وقبيل الذهاب إلى المستشفى، دخلتُ غرفة مكتبتي لاختيار كتاب يرافقني في أثناء وجودي في المستشفى. ووقعتُ عيناى على العديد من الكتب التي أودُّ قراءتها، ولكن لسبب ما مالَ قلبي إلى اصطحاب كتابٍ عن النبيِّ حُبُّوق كتبه صديقي جوناثان لام (Jonathan Lamb). وهناك في المستشفى بُعيد شبه يقظتي من تأثير المخدر، وما يرافق ذلك من ألم وانزعاج يعرفهما كلُّ من خضع لعملية جراحية استلزمتُ تخديراً عاماً، أمسكتُ كتابَ صديقي وقرأتُ بضع فقراتٍ، وألقيتُ الكتابَ جانباً. أسندتُ رأسي إلى وسادتي وأنا أتقلُّ ما بين الحلم واليقظة، وإذا بمرضةٍ تطمئنُّ على وضعي الصحيِّ بنبرةٍ هادئةٍ لطيفة. وبعد أن شاهدتِ الكتابَ إلى جانبي، سألتني عن موضوعه. قلتُ في نفسي: أهذا هو الوقت المناسب للكلام وأنا لا أقوى عليه؟ ولكنني أجبته قائلاً: "يتحدّث الكتاب بشأن أوقاتٍ صعبةٍ تواجهنا، وكيف أن الله يقف بجانبنا في أثنائها". قالت وهي تسير بهدوء خارج غرفتي: "ليتني أستطيع القراءة بالإنكليزية. لقرأتُ هذا الكتاب بكلِّ تأكيد!".

ألا تتشابه حالنا هذه الأيام مع معاناة المرضى والمتألمين في المشافي؟ ما رسالة الله لنا بواسطة النبيِّ حبُّوق؟ وهل تتوافق هذه الرسالة وواقعنا الذي نحياه في الشرق الأوسط بكلِّ ما فيه من ضياع وهيجانٍ وصعوباتٍ ومأسٍ؟

حتَّى متى؟ لماذا؟

اعتدنا في ثقافتنا الشرقية عند مخاطبة مَنْ هم أعلى شأنًا أن نمهدَّ خطابنا بكلماتٍ ودودةٍ ولطيفةٍ تهيئُء الجوّ المناسب لتقديم شكوانا أو تساؤلاتنا. فكم بالحريِّ عندما نخاطب الله؟ ولكن لم تكن هذه حال حبُّوق! فهو لا يفسح في المجال للمُجاملة أو لأصول الكلام، بل يُهرع إلى الامتعاظ والشكوى معبرًا ومفجّرًا بركانًا هائلًا من حمم الألم والغضب والضيق. لقد كان حبُّوق مُثقلًا بالهموم من هامته إلى أخمص قدميه. والواقع أنّ كلمة "رؤيا" في الآية الأولى من الفصل الأوّل لكتابه تعني حرفيًا "الثقل" كما سنرى بعد قليل! وكأنَّ ما يصبو إليه حبُّوق هو أشبه بعبءٍ يهدُّ كيانه ويتعبه.

كان حبُّوق مُثقلًا ليس فقط بهمومه الشخصية، بل أيضًا بهموم

خبيّة الأمل بالله

شعبه. وإذ يعبرُ الله عن شكواه بحرقه قلب، فإنه يفكر في أمته ومصيرها. هذا هو موقف الشجعان الذين لا تلهيهم همومهم الشخصية عن هموم الناس من حولهم.

ما الأمور التي أثارت حفيظة حبقوق فدفعته للسؤال: حتى متى؟ لماذا؟

عاش حبقوق في مدينة القدس أواخر القرن السابع قبل الميلاد بعيد حكم الملك الصالح يوشيا الذي جلب الرخاء والعدل والإيمان إلى مملكته. ولكن خلفه الملك يهوياقيم لم يكن كذلك، بل عمل الشر فعانت المملكة الفساد على كل الأصعدة. وفي زمن الملك يهوياقيم نظر حبقوق حوله فرأى الظلم والجور والعنف والإثم والاعتصاب والخصام والشقاء والابتعاد عن الله وازدراء شريعة الله...أمور نراها تقريباً في كل يوم من أيامنا، وإن لم نرها فكثيراً ما نسمع عنها.

”حتى متى يا رب أدعو وأنت لا تسمع؟ أصرخ إليك من الظلم وأنت لا تخلص؟ لم تُريني إثماً، وتبصر جوراً؟ وقدّامي اغتصاب وظلم ويحدث خصام وترفع المخاصمة نفسها“.

يرتبط الظلم بالعرف ارتباطاً وثيقاً، حيث تمارس بعض فئات المجتمع، التي تتمتع بالنفوذ والقوة، العنف باستخدام النظام القضائي لمصالحها ضاربةً بأسس العدالة عرض الحائط. كما أن المقصود بالإثم هو إساءة استعمال القوة سواء كانت اقتصادية أم اجتماعية أم سياسية أم دينية. وغالباً ما تقترن كلمة "الإثم" بالكلمة المترجمة "جوراً" (١ : ٣) في العهد القديم (مزمو ٥٥ : ١١؛ أيوب ٤ : ٨، ١٥ : ٣٥؛ إشعيا ١٠ : ١) حيث يمكن ترجمتها بكلمة "غش"، وهل لهذا الأمر حدود حتى في عصرنا؟ فالغش موجود على مختلف الأصعدة: الغش في الامتحانات المدرسية- حتى الرسمية منها حيث يُعدُّ الأمر لطفاً من المراقب- والغش في السلع هو حنكة تجارية، والغش حتى في سلامة الغذاء صار أمراً مألوفاً، والغش في المعاملات العقارية هو من باب تسهيل الأمور...

تردُّ الكلمتان "اغتصاب وظلم" (١ : ٣) معاً في مواضع عدّة (إرميا ٦ : ٧، ٢٠ : ٨؛ حزقيال ٤٥ : ٩؛ عاموس ٣ : ١٠)، وتتضمّن كلمة "الاعتصاب" كلَّ تصرّف يجبر شخصاً آخر على فعل ما لا يريد القيام به بما في ذلك الخطف بكلِّ أشكاله،

وتندرج تحت هذا الأمر مأساة العبوديّة، والاتّجار بالبشر، وخطف الناس الأبرياء، واستخدام المدنيّين في الحروب دروعًا بشرية. وكأنّ كلّ هذه الأمور المأساويّة غير كافية، يضيف حبّوق إليها مشكلة الخصام والنزاع (١: ٣) في المجتمعات. فتشير كلمة "خصام" بدلالاتها القانونيّة إلى الشكاوى والدعاوى في المحاكم، أمّا كلمة "المخاصمة" فتشير إلى النزاعات على صعيد الأفراد أو المجتمعات أو الشعوب. وأكثرها وأشدّها إيلاّمًا هي التي تنشُب ما بين الأقرباء أو الأصدقاء أو الكنائس أو شركاء الوطن الواحد.

تعبر هذه اللوحة في تدخّل ألوانها المبعثرة عن الفوضى القاتلة التي عاشها النبيّ حبّوق والتي يختبرها العديد منّا يوميًا. أمّا اللون الأحمر فيشير إلى انتشار العنف والموت والدمار، ولا يبدأ انتشار اللون من الأسفل بل من الأعلى في إشارة إلى أنّ العنف سيتمدّد وبانحدار شديد ليشمل كلّ جوانب الحياة. كما أنّ كثافة اللون الأحمر تشير إلى قوّته وسعة امتداده، كما يصف حبّوق عنف أمة الكلدانيّين.



وإنّ تساءلنا عن موقف أولئك الذين مهمّتهم حفظ الشريعة وتحفيز الآخرين على العمل بها، فنجد أنّ الشريعة ”جامدة“ وبكلمات أخرى ”تراخت قبضة الشريعة“^٢، وبتراخيها لا تخرج الأحكام العادلة، وما يخرج يكون ملتويًا. إنّ مسؤوليّة حفظ النظام والعدالة تقع بالدرجة الأولى على عاتق الملك زمن حَبْقُوق (إشعياء ٤٢: ٤، ٥١: ٤)، وما زال هذا الأمر ينطبق على أيّامنا حيث الرؤساء والحكومات هم الموجون بحفظ النظام والعدالة. ولكن هل هذا ما يحصل حقًا في مجتمعاتنا؟ أم عندما تسوء الأمور نبدأ في إلقاء اللوم على ”المؤامرات الخارجيّة“؟ يبدو أنّ الشرّ استشرى جدًّا في زمن حَبْقُوق؛ فبات الأشرار مسيطرين، ويترافق ذلك مع اضمحلال تأثير الأبرار!

ما مشكلة حَبْقُوق لدى رؤيته هذه الأمور؟ ثمّة ثلاث مشكلات تواجهه لا مشكلة واحدة فقط. أوّلاً، مشكلته الرئيسيّة ليست مع الناس بل مع الله نفسه. فهو غير قادر أن يفهم أنّ الله ”ينظر“ بنفسه إلى الشرّ ويظلّ صامتًا مكتفيًا بالمراقبة: ”...أصْرُخُ إِلَيْكَ مِنَ الظُّلْمِ وَأَنْتَ لَا تُخَلِّصُ؟ لِمَ تُرِينِي إِثْمًا، وَتُبْصِرُ جَوْرًا؟“

(٢) عوكر والفغالي، ص. ٩٤٤.

(١: ٢ و ٣). في مقال جريء عقب الهزّة الأرضيّة التي وقعت في نيپال في ربيع عام ٢٠١٥م، يتحدّث المفكّر الدكتور فينوت راماشاندر (Vinoth Ramachandra) بدور الإنسان في مساهمته في خراب البشريّة عندما تفتقر الدول الفقيرة إلى الكثير من مقوّمات الحياة، فضلاً عن معاناة الفساد. وهكذا فإنّ حجم الكارثة الطبيعيّة نفسه في دولة غنيّة يؤدّي إلى خسارة أقلّ في الأرواح والممتلكات منه في دولة فقيرة، ويختم قائلاً: ”إجابة عن السؤال الذي يطرح غالباً: أين الله من المآسي؟ نقول إنّ الله المثلث الأقانيم والمحبّ كان حاضرًا في ألم الضحايا ورعبهم، وفي حزن الناجين، وفي بطولة الذين أنقذوا الآخرين، وفي الغضب والاحتجاج ممّن دافعوا عن الفقراء والمهمّشين في عالم تنتشر فيه التكنولوجيا“.

أمّا مشكلة حبّقوق الثانية فهي أنّ الله الذي نتوقّع أنّه الإله الذي يستمع لتضرّعات عبّيده، يبدو كأنّه صمّ أذنيه عن سماع صوت استغاثة حبّقوق: ”حتّى متى يا ربّ أدعو وأنت لا تسمع؟“ (١: ٢)، لم يكن صوت استغاثة حبّقوق ناعماً وخافتاً لا يُسمع، بل كان صراخاً قوياً (كلمة ”أصرخ“ هي في الأصل ”أزعق“).

وتكمن مشكلته الأخيرة في كيفية انحدار الإنسان إلى الدرك الأسفل حيث يفقد إنسانيته، ويسلك وفقاً لشريعة الغاب حيث الشراسة هي سيد الموقف.

أمام هذه المشكلات الثلاث ماذا عسى حبقوق أن يفعل؟ أيكفي بالنظر إلى الواقع الأليم؟ أستمراً في مهمته النبوية فيدعو الناس إلى التعقل والإيمان؟ أيفكر في تأسيس منظمة غير حكومية لحل بعض هذه المشكلات؟ ربما... ولكنه يختار سبيلاً آخر: أن يشكو لله ما يختلج في أعماقه من أسى وغضب وحزن، حتى وإن تضمن ذلك عتاباً لله، لا بل احتجاجاً على الله نفسه! كان هذا هو السبيل الذي اختاره ناظم المزامير عندما سأل الله "لماذا؟" (مزمو ١٠ : ١ ، ٢٢ : ١ ، ٤٣ : ٢ ، ٤٤ : ٢٤) و"حتى متى؟" (٣ : ٦ ، ٧٤ : ١٠ ، ٨٠ : ٤ ، ٩٠ : ١٣ ، ٩٤ : ٣).

من المهم أن نقتدي بناظمي المزامير وبالنبي حبقوق في هذا المجال. لقد تعلم بعض المؤمنين بالسيّد المسيح أن الحياة المسيحية مفروشة بالورود، لذا عندما يواجهون الصعاب والمآسي يتساءلون عن مدى صحة إيمانهم وقوته، وحرى بهم في مثل هذه الأوقات أن يعبروا لله بكل صدق وشفافية عما يشعرون به سواء كان خيبة أمل أم

شكوى أم شكاً أم يأساً أم تساؤلات. كما أنّ عليهم أن يتعلموا من حبّوق أنّ الله يريد لهم أن يشاركوه بكلّ ما يفكّرون فيه أو يشعرون به سواء حسبوا ذلك إيماناً أم قلة إيمانٍ أو حتّى عدم إيمان.

سعاد: لماذا ياربّ؟

يومٌ دمشقيّ غير عاديّ الذي استيقظت فيه سعاد مع أولادها وزوجها قاصدين المدرسة والعمل. ما غير العاديّ؟ لقد اصطبغ صباح ذلك اليوم بدماء أبناء المدينة، ورسمت أشلاء أطفال الوطن على جدرانه أحلك لوحةٍ يمكن أن تُرسم بريشة الغدر والحقد الأسود! أهو ظلام الحقد؟ لا أفهم، لكن يبقى السؤال الذي لا إجابة عنه: لماذا الأطفال والنساء هم من يدفعون ثمن ألوان تلك اللوحة البغيضة؟

سعاد طبيبة أربعيّنة جميلة وأمّ لفتاة مراهقة وشابّ على أعتاب الرجولة، كان هو أحد معالم تلك اللوحة الرهيبة... استيقظت على صوت التلفاز المستمرّ منذ ثلاث سنين دون توقّف يصف الجرائم وأحداث البلد، فمن حمص إلى درعا إلى حلب- كلُّ له صفحته في نشرة الأخبار.

خطر على بالها ذلك الصباح أن تبقى في المنزل مع أولادها وزوجها دون الذهاب إلى عملها، لكنها سمعت في عقلها صوتاً يقول حتى متى سنبقى في جحورنا مخبئين؟ وبوصفها امرأةً سوريّةً ينبض في عروقها عنفوانُ زنوبيا وتحديها، قرّرت أن تذهب إلى عملها رغم المخاطر، ودفعت أولادها للذهاب إلى المدرسة... قالت لزوجها المتردّد: لن يرغمونا على الموت داخل بيوتنا قهراً، بل علينا أن نتحدّى ونتابع حياتنا. وهكذا افترق الأربعة كلٌّ إلى شأنه.

نصف ساعة كانت كافيةً لتقلّب حياة سعاد وأفراد عائلتها، لتبدأ صفحةً جديدةً عنوانها "لماذا؟" كان ازدحام السيّارات وجنون السائقين الذي يعبر عن الخوف من الرصاص الطائش ومن القذائف الغادرة هو ما دفعها لتنزل من الباص مسرعةً حتى لا يفوتها موعدُ عملها... وما هي سوى لحظاتٍ خاطفة حتى مزّق الفضاء صوتٌ مرعبٌ هزّ أرجاء دمشق القديمة... إنّها قذائف الهاون تسقط على المازّة والبيوت المجاورة... حتى المدارس لم تسلم... وكان لسعاد نصيبٌ من إحدى شظايا الغدر.

سقطت على الأرض وسقط آخرون حولها رجالاً يصرخون ونساء مرتاعات، أمّا الأطفال فقد صار الشارع جدولاً تجري فيه

دماءهم... بعد برهة عادت لتتذكر أنّها هي الأخرى أصيبت...
لكن أين؟ شعورٌ خدرٍ أحسّت به... إنّها يدي اليسرى... لم
تعدّ لي... صرّرتُ ممزّقة كخرقة بالية... صرخت: "أنقذوني!" لم
يسمعها أحد؛ فطبول عرس الموت كانت تدقُّ قويّةً على نحو
أصمّ الأذان. استطاعت أن تنهضَ حاملّةً ما تبقى من يدها،
وهُرِعَتْ إلى المستشفى الأقرب، لكنّها أحسّته بعيدًا جدًّا!

أُجريت لها الإسعافات اللازمة ثمّ أُدخلت غرفة العمليات
المكتظة بالمصابين والأطباء والعاملين لتخضع لعمليةٍ صعبةٍ ودقيقةٍ
استفاقت بعدها على صوت الأطباء يقولون: إنّها تحتاج إلى جراحةٍ
عاجلةٍ وإلا ستفقد يدها... صرخت: "يا إلهي! لماذا؟ إنّها يدي وأنا
طبيبة، ولا أستطيع العمل دون يدي... أرجوك ساعدني!"

لم تجد جوابًا عن أسئلة كثيرة دارت في ذهنها... لكنّ أصوات
زوجها وأولادها أعادتها إلى الواقع... نظرت إليهم وسط دموعها
ودموعهم... وقرأت أسئلتها ذاتها. لكنّ لا جواب! حاول زوجها
أن يستحضر كلماتٍ يبثُّ بها رجاءً في قلبه قبل قلبها، لكنّها
كلماتٍ بلا أيّ معنى!

في عينيّ ابنها، قرأت الغضب والحيرة... وسمعت صوته يصرخ: "أمي، أين الله؟ لماذا خدعتنا وقلت لنا إنه سيحمينا؟" لم تقوَ سوى على صمتٍ كان أبلغ من الكلام. التفتت إلى زوج عاجز عن فعل أيّ شيء... خرج زوجها مغادراً الغرفة وما كانت لتعلم أن خروجه سيكون ليس فقط من الغرفة، بل من حياتها وحياة أولادها إلى الأبد! فبعد يومين وقع هناك انفجارٌ هائلٌ قرب مكان عمله... سألت عنه فأجابوها: "نعم يا سعاد... ذهب حلمك الجميل... إنه في ذمة الله!"

وبعد يومين من ذلك، أخبروها بأن ابن أخيها الشاب المخطوف قُتل هو الآخر ووجدت جثته في أحد البساتين... لم يقوَ عقلها بعد هذا على التفكير، وشعرت بأنها وراشها قطعة واحدة... جنازة مشتركة كانت للأحباء، وكم من الجنازات المشتركة التي أقيمت للسوريين! لم تستطع أن تودّعهم، لكنّها صرخت بصوتٍ تردّد صداه في أرجاء المستشفى: "وأنا يا إلهي... خذني معهم!" ثم دخلت في غيبوبة...

استفاقت بعد ساعات لترى ابنتها تحضنها ودموعها تغمر وجهها. كانت همسات صوتها تأتي من بعيد إليها. "ماما... لا تذهبي..."

خبيبة الأمل بالله

بقينا أنا وأخي . أرجوك ارجعي إلينا...“ صحيح لم يأخذها الله مع من ذهبوا؛ ففي الحياة من ينتظرها وينتظر إصرارها وتحديها! ابتسمت لولديها ابتسامة لمسا فيها عودتها إليهما، فبادلاها ابتسامًا كان له نور شمعة أضاء في عتمة الحيرة .

بعد ثلاثة أيام كان الأطباء يتشاورون لإجراء عملية دقيقة احتمال نجاحها ضئيل . قرأت في عيونهم الخوف من المجازفة . فأعصاب اليد مقطوعة واحتمال بقائها ضئيل... أرادوا موافقتها لكنّها رفضت، والخوف يكتب على شفيتها ”ماذا لو لم تنجح العملية؟“ كان قرارها هو الكلمة الفصل ، واستسلمت لليأس والحزن القلق ! نامت تلك الليلة بعد جهاد مرير مع المجهول... كيف ستبقى دون يد؟ ومن سيعيل أولادها؟ صباحًا أخبروها بأنّ هناك صديقتين تريدان زيارتها، فاستقبلتّهما وقد سبق ترحيبها سؤال صارخ: ”لماذا، لماذا، لماذا؟“

قالت لها إحداهما: ”لماذا يا سعاد لا أعلم . لكنني أعلم شيئًا واحدًا: أنّ الله يرى ويسمع ويهتم . هو معك وينتظر منك كلمة واحدة: «تكلم يا ربّ، فإن أمتك تسمع . أنا أصغي» . أغمضت عينيها وللمرّة الأولى صرخ قلبها قبل شفيتها: ”تكلم يا ربّ،

وأنا أصغي! هل أخضع للعملية؟ أهنالك أملٌ في الشفاء أم أنني سأفقد يدي؟ أرجوك أجبني!“ كانت الاستجابة سريعةً؛ إذ زال الخوف والقلق والحيرة، وغمر قلبها سلامٌ عجيب. نادَت الأطباء المنتظرين، وقد أصابتهم الدهشة، وقالت إنَّها وافقت على الخضوع للجراحة، وإنَّ يدها ستشفى. سألتها أحد الأطباء: ”كيف عرفت؟“، فردَّت أنَّ السيّد المسيح أكَّد لها ذلك! وأضافت: ”لا تخافوا! فيده ستكون مع أيديكم“. وهذا ما حدث، فبعد العملية الصعبة عادت اليد تتحرَّك. وبدأت سعاد تخضع لعلاج فيزيائيٍّ وعادت إلى عملها. في نهاية هذا الكتاب سنكمل قصَّة سعاد.

حتَّى الآن ما زالت سعاد تبحث عن جوابِ السؤال: ”لماذا كلُّ هذا؟“ هل ستجد الإجابة؟ هل يستطيع حبُّوق النبيُّ أن يتعاطفَ معها ويساعدها؟

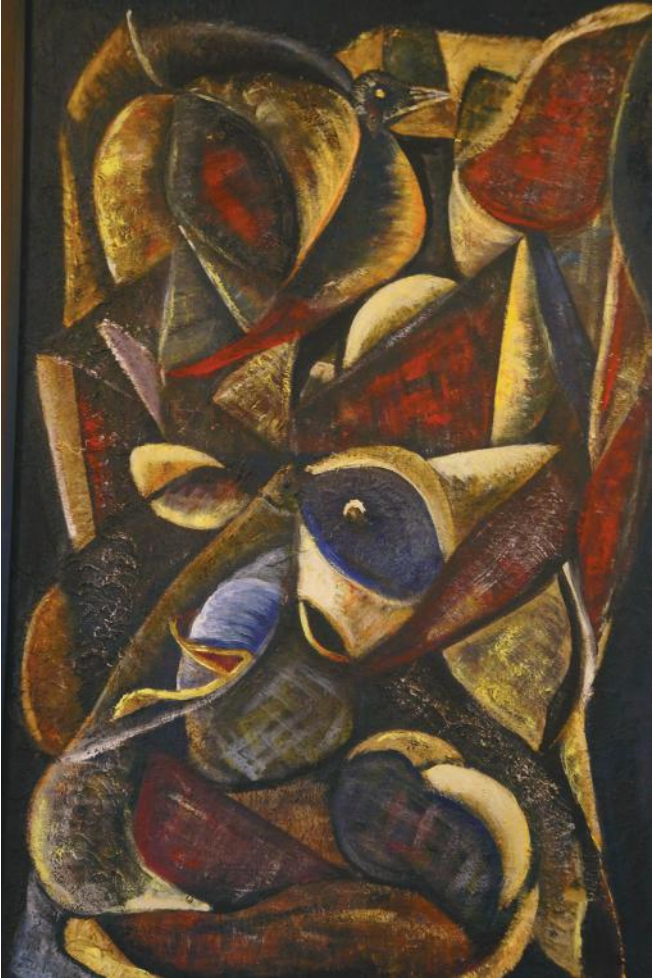
وضع حبُّوق سؤاله ”حتَّى متى؟“ و”لماذا؟“ أمام الله منتظرًا الإجابة. الكرة الآن في ملعب الله، فهل سيردُّ الله أم أنه سيتجاهل الكرة كما يبدو أنه تجاهل وجودَ الظلم والعنف والاعتصاب؟ وإن قرَّر الله الردَّ، فهل سيكون الردُّ وفق توقُّعات حبُّوق؟ أظنُّ

خبيبة الأمل بالله

أنه ليس صعباً أن نعرفَ توقُّعاتِ حُبُّوق. فبشأن السؤال الأول، توقُّع حُبُّوق أن يحدِّد له الله مدَّةَ زمنيَّةٍ معيَّنة تعود بعدها الأمور إلى مجاريها، وتعدو الحياة مبهجة، فتنتهي الأهوال والمآسي التي عاناها حُبُّوق وشعبه.

أمَّا بشأن السؤال الثاني، فقد توقُّع إجابةً منطقيَّةً واضحةً تشرح سببَ وُجودِ الشرِّ في هذا العالم، وسبب غياب الله عن عالمه! مثل هذه الإجابات ستُريح حُبُّوق من العبء الذي يثقل كاهله، وإجابات على هذا المنوال تريحنا نحن أيضاً دون شك! فماذا كانت إجابة الله؟

ليست الحياة بالأمر اليسير، فهي حافلة بالمتناقضات ووجهات النظر المتباينة. وأمام ذلك، يفقد المرء بوصلة حياته ويشعر بالارتباك والضياع وفقدان الرجاء. كم مرةً اخترنا ذلك في حياتنا؟ لكن في خضمّ التناقضات، نستطيع أن نتميّز بعضَ الأمور. ما الذي نستطيع أن نتميّزه في هذه اللوحة؟



إجابة الله

يُثَبِّتُ اللَّهُ حَقُّوقَ أَنْ ظَنَّه أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ غَائِبٌ عَمَّا يحصل من شرور وظلم وخصام في هذا العالم، ليس بالأمر الصحيح. فها هو الله يدعو حَبُّوقَ وكافَّةَ أفراد الشعب آنذاك إلى النظر والتبصُّر، وأكثر من ذلك فهو يدعوهم إلى اختبار أمر غريب جدًّا يفوق توقُّعاتهم وتصوُّراتهم (١ : ٥):

”انظروا بين الأمم، وأبصروا وتخيروا حيرةً. لأنِّي عاملٌ عملاً في أيامكم لا تُصدِّقون به إن أُخبرَ به“.

لو كنتُ مكان حَبُّوق لتوقَّعتُ أَنَّ اللَّهَ سيُخبرني بأنَّ الشرَّ إلى زوال، والنزاع إلى اضمحلال، والعنف إلى سلام، والظلم ستغلبه العدالة، والاعتصاب سيختفي إلى غير رجعة، لكنني أصاب بالذهول والدهشة عندما أدرك أنَّ ما أفكر فيه وأتوقَّعه هو غير ما يفكر فيه الله ويقصده! فالله على موجة وأنا على موجة أخرى تماماً!

في أحيان كثيرة نقترَب من الله ونحن نريد منه أن يحقق مطالبنا ليس إلَّا، ونحقق عندما نظنُّ أَنَّ اللَّهَ هو أشبه ”بابا نويل“ في موسم الميلاد سيحمل لنا الهدايا التي نرغب فيها. الله هو الله

العالي والمتسلط على كل خليقته. لذا حرّياً بنا أن نصغي بكلّ جدية إلى الله على فم نبيّه إشعياء عندما قال: «لأنّ أفكاري ليست أفكاركم، ولا طُرقكم طُرقي، يقول الربُّ. لأنّه كما علّت السماوات عن الأرض، هكذا علّت طُرقي عن طُرقكم وأفكاري عن أفكاركم» (إشعياء ٥٥: ٨-٩). كان هذا هو الدرس الأساس الذي على حبّوق تعلّمه، كما نحن أيضاً.

ما «العمل العجيب» الذي يعدّ الله حبّوق به؟ يبدو لحبّوق ولنا أنّ العمل العجيب- كما يقول المثل العربيّ «سوف يزيد الطين بلّة!» أو كما يقول المثل اللبنانيّ الشائع: «فوق الموتة دعة قبر!» فبدلَ تدخلَ الله المباشر والسريع لإصلاح الحالة الفاسدة التي يراها حبّوق، واستئصال مسببات معاناته وألمه وإقامة السلام والعدل والحقّ، نفاجاً بأن نرى الله مزعم أن يقيم أمة الكلدانيين (البابليين)، وهي أمة ضارية في الحروب امتازت بالوحشية والافتحام وامتلاك مدن الآخرين وقراها وممتلكاتهم (١: ٦)!

تخيّل معي وقع هذه الكلمات على مسامع حبّوق! وكأنّ ما يراه من شروور تثقل كاهله ليس كافياً ليخبره الله أن ينتظر شرووراً أكثر! تخيّل معي أنّك تعاني أزمة ما سواء كانت مادّية أم عاطفيّة

أم عائليةٌ أم وطنيَّة، وهي ترخي عليك بظلالها القاسية فتلجأ إلى صديق ليواسيك ويخفّف عنك هول الأزمّة، وإذ به يؤكّد لك أنّ ما تعانیه ليس بشيء يُقارن بما ستواجهه في المستقبل القريب! مع اقتراب نهاية كلّ عام تتسمّر عيون الكثيرين على شاشات التلفزة للاستماع لتوقّعات ”الخبراء والخبيرات“ عمّا سيحمله العام المقبل، ودون شكّ قد تصدق هذه التوقّعات أو قد تخيب، ولكنّ حبّقوق هنا لا يستمع إلى ”خبير“ أو ”متنبّي“، بل إلى الله نفسه، والله نفسه يعده بأن ينتظر ما لم يتوقّع أن يراه!

بغضّ النظر عن طبيعة العمل الذي يعلنه الله لحبّوق فمن الجدير التوقّف عند كلمة ”عامل“ (١ : ٥)، فهي تشير إلى أنّ الله ليس ببعيدٍ عن الأحداث، فليس هو مجرد مراقب متفرّج خلق الكون يوماً وتركه يعمل وحده تماماً مثل صانع الساعات. إنّ الله الحاضر والفاعل في تاريخ البشر! وبينما محور اهتمام حبّوق هو شعبه ومصيره فإنّ الله يفكّر في الشعب، ولكنّه يرى النظرة الدقيقة والشاملة في آن معاً. عندما ننظر من قرب إلى لوحة فنّيّة نرى بعض الأشياء والألوان، ولا نستطيع أن ندرك روعة اللوحة إلّا إذا ابتعدنا منها مسافة معيّنة. أحياناً كثيرة نتعامل مع الحياة وكأنّ عيوننا تكاد

تكون ملتصقة بأمر معين فلا نرى سواه، وقد يكون هذا الأمر أمرًا سلبياً يعكّر صفو الحياة، ولكنّ علينا أن نقترّب من الله ونطلب منه أن يساعدنا على النظر نظرة شموليّة لنرى الصورة الكبرى.

بعدها سمع حبّقوق كلمات الله المختصرة و”غير المطمئنة“ بشأن ما سيحدث قريباً، راح يفكّر في الواقع المرير والمستقبل الأمر! اتّجهت مخيلته لتسترجع كلّ ما سمعه وعرفه واختبره عن أمة الكلدانيين ووحشيتها. هذا ”الأمر الغريب“ الذي يعدّ الله حبّقوق به مماثل لأمر غريب آخر ورد في سفر إشعياء (٢٩: ١٣-١٤) حيث غزا سنحاريب ملك آشور مملكة إسرائيل^٣

٣) استبدلنا بكلمة ”إسرائيل“ كلمة ”إسرائيل“ في هذا الكتاب لسبب مقصود؛ وذلك للتمييز ما بين الشعب العبريّ القديم المذكور في العهد القديم ودولة إسرائيل الحديثة. من المفيد جداً أن تتبّع هذا التمييزَ الترجمات العربية للعهد القديم، وكأفّة الكتابات المتعلقة بالعهد القديم. وتجدر الملاحظة إلى أنّه ينبغي التمييز أيضاً ما بين كلمة ”فلسطيني“ الواردة في العهد القديم لتكتب ”فلسطيني“ لتمييزها عن كلمة ”فلسطيني“ التي نستعملها في أيامنا للإشارة إلى الفلسطينيين العرب في الأراضي المحتلة أو في الشتات. وتميّز اللغة الإنكليزيّة بين هذه الأمور باستخدام ”Israelis“ و”Israelites“، و”Philistines“ و”Palestinians“. وفي السياق ذاته، إنّ الترجمة العربيّة المشتركة للكتاب المقدّس، إصدار دار الكتاب المقدس في العالم العربيّ، التي شارك فيها مجموعة من المترجمين الذين ينتمون إلى الكنائس الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة والإنجيليّة، أحسنت صنعاً باستخدام كلمة ”فلسطيني“ بدلاً ”فلسطيني“، ولكنّها لم تعتمد ذلك لكلمة ”إسرائيل“. انظر مناقشتي لهذا الأمر في:

R. Kassis, "Christian Zionism: A Critique." Unpublished ThM thesis. Vancouver: Regent College, 1993, p. 142, n. 69.

الشماليّة في العام ٧٢٢ ق. م، أي قبل نحو ١٠٠ عام، فسقطت عاصمتها السامرة بحدّ السيف، وعانى الشعب أشدّ الويلات. سيتكرّر الأمر نفسه قريباً مع المملكة الجنوبيّة، ولكن على أيدي الكلدانيّين هذه المرّة. هل نتعلّم من أخطاء الماضي؟ هل نعيش ذاكرتنا بما حدث في الماضي فلا تتكرّر المأساة مرّة ومرّات؟

عُرف الكلدانيّون بسرعة امتدادهم (حبّوق ١ : ٨)، فقد سقطت آشور عاصمة الإمبراطوريّة الآشوريّة على أيديهم في عام ٦١٤ ق. م، وتلتها مدينة نينوى في عام ٦١٢ ق. م، ثمّ حرّان في عام ٦١٠ ق. م. وفي مدّة وجيزة استطاعوا السيطرة على بابل وأشور وسوريا وفلسطين ومصر.

كنّا قد أشرنا أنّنا إلى تذرّج حبّوق وامتعاضه من العنف الموجود (١ : ٢ و ٣)، وها هو يؤكّد الآن أنّ هدف الكلدانيّين هو العنف أيضاً (١ : ٩). عانى حبّوق غياب العدالة في مجتمعه (١ : ٤)، وها هم الكلدانيّون يفهمون ويمارسون العدالة كما يحلو لهم (١ : ٧). هل نستخدم في أيّامنا مصطلح "الإرهاب الدوليّ"؟ هذا هو الوصف المختصر لأمة الكلدانيّين آنذاك!

ولكنَّ السؤال الذي يحيرُّ حَبْقُوق هو: لماذا يفعلُ اللهُ ذلك بشعبه؟ والإجابة واضحة وُضُوحَ الشمس في رابعة النهار: اللهُ يعاقب شعبه على خطاياهم، فلا مفرَّ من دينونة اللهِ، لا سيَّما على أولئك الذين يدَّعون أنَّهم خاصَّته وشعبه المختار! ولتنفيذ العقاب يستخدم اللهُ الكلدانيِّين كأداة للعقاب.

ينطوي هذا الأمر على الحقيقة المهمَّة: أنَّ اللهُ هو سيِّد التاريخ، وهو الذي يتحكَّم في مسار الشعوب ومصائر الأمم بما في ذلك الأُمَّة الشرسة، أُمَّة الكلدانيِّين؛ ففي وُسع اللهُ استخدامهم لتحقيق مقاصده في تأديب شعبه ودينونته. ليس من السهل علينا فهم هذا الأمر، ولكنَّ هذا هو حقًّا ما فعله اللهُ وما قد يفعله أيضًا. قد نظنُّ أنَّ الجيوش الجبَّارة والأمم القويَّة هي صاحبة السلطة والقرار في عالمنا، ولكنَّ الحقيقة التي نحتاج لأن نعرفها هي أنَّ اللهُ هو الذي يتدخَّل في التاريخ، ويخضعه لإرادته، ويفرضُ عليه سيطرته. إنَّه هو، وليس سواه، السيِّدُ المطلق، له القرار وله الأمر.

أسئلة للتفكير والمناقشة

١. هل ترى أوجه تشابه بين ما اختبره حبُّوق في مجتمعه وما تراه الآن في مجتمعك؟ ما أوجه التشابه وأوجه الاختلاف؟
٢. ماذا كان ردُّ فعل النبيِّ حبُّوق عندما أخبره الله بأنَّ أمّة الكلدانيين ستهاجمُ شعبه؟
٣. ما مشكلات حبُّوق الثلاث التي أثارت لديه الحيرة والارتباك؟ هل تجد بعض الناس من حولك يعانون جرّاء هذه المشكلات؟ كيف تستطيع مساعدتهم على تجاوزها؟
٤. ماذا سيكون شعورك لو اجتزت في حالٍ مماثلةٍ لما عانته سعاد؟